﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ [الزخرف: 57 - 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكـــرُ افـــتراءِ المشـركـين على عيسى ودحضُه كَـمـا دحـضَـتِ السّورةُ غيرَه من الفِرَى

بعد أن ذكرت السّورةُ الكريمة أربعًا من مفتريات المشركين، وردَّت عليهم ردودًا مُفْحِمة، وهي أباطيلُ تتلخَّص في: أنَّهم جعلوا للّه من عباده جزءًا، وجعلوا الملائكة الَّذين هم عباد الرَّحمن إناثًا، وقالوا: لو شاء الرَّحمن؛ ما عبدنا الأصنام، وقالوا: لولا أُنزلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم؛ ناسب أن تَذكر هاتان الآيتان وما بعدهما فِريتَهم الخامسةَ، الَّتي تتعلَّق بنبيِّ اللّه عيسى - على نبيِّنا وعليه أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ السَّلامِ - وتدحضَها كما دحضَتْ ما سبَقَها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصِدُّونَ﴾: الصُّدود: الإعراض، وقد صَدَّ عنه، يَصُدُّ صَدًّا وصُدودًا، قال تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾ [النساء: 61]، وصدَّه عن الأمر صدًّا: صَرَفَه، ومنعه، قال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النمل: 43]، أي: صَدَّ بِلقيسَ عن الإيمان العادةُ الَّتي كانت عليها من عبادة الشَّمس، وصدَّ يصُدُّ ويصِدُّ، أي: ضَجَّ، قال تعالى: ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾[2]، بمعنى: يَضِجّون أو يُعرِضون[3].

2) ﴿جَدَلَۢاۚ﴾: (جدل) أصلٌ واحدٌ، وهوَ: استِحكامُ الشَّيءِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 639، وحجازي، التفسير الواضح: 3/ 401.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 390.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 51.

في استِرسالٍ يكونُ فيه، وامتداد الخُصومةِ ومراجعة الكلام[1]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه: الجديل، وجدلت البناء: أحكمته، ومنه: الجِدال، فكأنَّ المتجادلين يفتل كلٌّ واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجِدال: الصِّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالَة، وهي الأرض الصُّلبة، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وقال أيضًا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾[2].

3) ﴿خَصِمُونَ﴾: (خصم) أصلانِ: أحَدُهُما المُنازَعَةُ، ومنه: الخَصْمُ الَّذي يُخاصِمُ، والذَّكَرُ والأُنثَى فِيهِ سَواءٌ، والخِصامُ: مَصدَرُ خاصمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا[3]، وأصل المُخاصمة: أن يتعلَّق كلٌّ واحد بخصم الآخر، أي: جانبه، وأن يجذب كلٌّ واحد خصم الجوالق من جانب، والجمعُ خُصومٌ وأخصامٌ، قال تعالى: ﴿خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ [الحج: 19]، وقال: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ [ق: 28] والخَصِيمُ: كثير الخصام والمخاصمة، والخَصِمُ: المختصُّ بالخصومة، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صُدودٌ وضجيجٌ قائمٌ على الخصومةِ والجدالِ، لا من أجل الوصول إلى الحقِّ

تُبَيِّنُ الآيةُ الأولى فعلَ المشركين حين ضَرَبَ ابنُ الزِّبعرى المثلَ بعيسى ﷺ، مُحتَجًّا بعبادة النَّصارى له، فإنَّه لمّا نزلت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ [الأنبياء: 98]؛ شقَّ ذلك على أهل مكَّة، وقالوا: شتم محمَّد آلهتنا، فجاءهم ابن الزِّبعرى، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: شتم محمَّد آلهتنا، قال: وما قال، قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (جدل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (خصم).

أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ [الأنبياء: 98] قال: ادعوه لي، فدعا محمَّدًا صلّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فقال ابن الزِّبعرى: يا محمَّد هذا شيء لآلهتنا خاصَّة أم لكلِّ ما عبد من دون الله؟ قال: "بل لكلِّ ما عبد من دون الله ﷻ"، قال: فقال خصمتك وربِّ الكعبة، يا محمَّد ألست تزعم أنَّ عيسى عبد صالح، وعزيرًا عبد صالح، والملائكة عباد صالحون، قال: "بلى"، قال: فهذه النِّصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، قال: فضجَّ أهل مكَّة، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: 101]، قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾؛ إذ فاجأ كفّارُ قريش رسولَ اللهِ بالصّياح والضَّجيجِ والضَّحكِ؛ فَرَحًا بما قالَه ابنُ الزِّبعرى، وظنًّا منهم أنَّه قد انتصر على رسول الله في الخصومة والمجادلة[1]، وتُبَيِّنُ الآيةُ الثّانيةُ حجَّتَهم الَّتي بَنَوا عليها باطلَهم، وهي أنَّ رسولَ الله أخبرهم بأنَّ عيسى بنَ مريم رسولٌ من رسل الله، وأنَّه خيرٌ من آلهتهم، فإن كان في النّار يوم القيامة؛ فقد رَضوا بأن يكونوا معه، والواقع أنَّهم ما قالوا ذلك من أجل الوصول إلى الحقِّ، وإنَّما قالوه من أجل الجدل والغلبة في القول؛ لأنَّهم قومٌ دَرَجوا على الخصومةِ واللَّجاجِ في الباطل، حتّى صاروا كالمجبولين عليه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو في أوّل الآية:

بيانُ فِريةٍ جديدةٍ ونـوعٍ آخـرَ من لـجـاجِ مشركي مكَّـة وجدالِـهم لرسول الله

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ عاطفة، عطفت قصَّة من أقاصيص كفرهم وعنادهم على ما مضى من حكاية أقاويلهم[3]؛ لبيان فِريةٍ جديدة ونوعٍ آخرَ من لجاج مشركي مكَّة، وإمعانِهم في

(1) الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النّزول، ص: 135.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 260، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 91، و92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 236.

المكابرة[1] والجدالِ القاصدِ إلى إحراج رسولِ الله ﷺ ومشاقَّتِه وإيسافِه، كما كان يفعلُ مَن سبقوهم مع رسلِ الله تعالى وأنبيائِه.

دلالةُ التَّعبير بـ (لَمّا):

التَّشويقُ المُفضي إلى التَّعجيب مِن صنيع المُشركين

(لَمّا) في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ هي الحينيَّةُ المُتَضَمِّنةُ معنى الشَّرط، والَّتي تجمع بين جملتين، ترتبطُ الثّانيةُ منهما بالأولى ارتباط المُسبَّب بالسَّبب، وهي تفيدُ وجودَ جوابها عند وجود شرطِها أو توقيته[2]، وفي التَّعبير بها نوعٌ من الإثارة والتَّشويق المُفضي إلى التَّعجيب والدَّهشة مِن فعل مشركي مكَّة عندما ضَرَبَ ابنُ الزِّبعرى قبل إسلامه المثلَ بعيسى بن مريم، على نبيِّنا وعليه أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وتوجيه المتشابه اللَّفظي:

عادةُ القرآنِ التَّعبيرُ بعيسى في مقام التَّكليف، وبالمسيح في مقام الثَّناء، وبابن مريم في مقام ضرب المثل

هذا الموضعُ أحدُ موضعين تمَّ التَّعبيرُ فيهما عن المسيح عليه السلام بكنيته، وهي ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، حيث ورد أيضًا في سورة (المؤمنون) قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]، أمّا بقيَّة المواضع؛ فقد يُعبَّر عنه فيها باسمه: (عيسى)، أو لقبه: (المسيح) منفردين أو مجتمعين، متبوعًا بـ (ابْنُ مَرْيَمَ) أو بدونه، ومن الملحوظ أنَّ التَّعبير عنه بالمسيح يأتي في سياق الثَّناء، أو تصحيح العقيدة، ولا يأتي في سياق إيتاء البيِّنات أو الرِّسالة، والتَّعبير عنه بعيسى يأتي في سياق التَّكليف، وفي سياق المدح والثَّناء، وفي سياق النِّداء؛ لكونه عامًّا وعَلَمًا عليه، أمّا التَّعبير عنه بـ (ابْن مَرْيَمَ)؛ فلم يأتِ في مقام التَّكليف، ولا في مقام الثَّناء أو النِّداء، وإنَّما ورد في مقام بيان وجه الإعجاز في خلقه، كما في سورة (المؤمنون)، أو في مقام ضرب المثل به، كما في سورة الزُّخرف[3].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 98.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 236.
(3) السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص: 916.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّة:

ردودُ فعلِ المشركين دائمًا على النَّقيض ممّا يجبُ أن تكون

عبَّر النَّظمُ في جواب (لَمّا) بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّة؛ للدَّلالة على أنَّ ما قام به المشركون عندما ضُرب المَثَلُ بعيسى كان أمرًا مفاجئًا، أثار عجبَ رسولِ الله ﷺ ودهشتَه؛ لأنَّه لا يَتوقَّعُ حصولَه منهم، وما ذلك إلّا لحسن ظنِّه فيهم، وأملِه في أن يكون ما تلاه عليهم مِن وحي الله – لا سيَّما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] – رادعًا لهم، مزلزلًا لمشاعرهم، لكنَّهم كانوا على العكس ممّا يَظُنُّ، ويرجو، وعلى النَّقيض ممّا يجب أن يكون.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (قَوْمُ) مضافًا إلى ضمير الرَّسول:

حقيقٌ بقوم النَّبيِّ نصرته وطاعته

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الكفّار بقوله: ﴿قَوْمُكَ﴾؛ للإشارة إلى ما منحهم اللهُ تعالى من نعمٍ كثيرةٍ، تأتي على رأسها القدرةُ الَّتي تُعينُهم على القيام بما يحاولونه[1]، وأوثر التَّعبيرُ به مضافًا إلى ضمير الرَّسول لزيادة التَّعجيب منهم، والإنكار عليهم، كيف فرحوا مِن تغلُّب ابن الزِّبعرى على النَّبيِّ ﷺ بزعمهم في أمر عيسى عليه السلام، أي: مع أنَّهم قومُك، وليسوا قومَ عيسى ولا أتباعَ دينِه، فكان فرحُهم ظلمًا شديدًا من ذوي القربى[2].

دلالةُ التَّعبير بحرف الجرِّ في: ﴿مِنْهُ﴾:

جَعَلَ المشركون المثلَ المضروبَ سببًا للصَّدِّ والإعراض

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ ابتدائيَّة، وليست لتعدية ﴿يَصِدُّونَ﴾ إلى ما في معنى المفعول؛ لأنَّ الفعل إنَّما يتعدّى إليه بحرف (عن)، ولكنَّها متعلِّقة بـ ﴿يَصِدُّونَ﴾ تعلُّقًا على معنى الابتداء، أي: يَصِدّون صدًّا ناشئًا منه، أي: مِنَ المَثَل، أي: ضُرِبَ لهم مثلٌ، فجعلوا ذلك المثل سببًا للصَّدِّ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 455.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 238.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.

توجيهُ القراءاتِ المتواترة في: ﴿يَصِدُّونَ﴾:

حالُ الكفّارِ مع الرَّسول دائمًا الصَّدُّ والتَّشكيكُ في كلِّ ما يُخبِرُ به

قرأ نافعٌ وابنُ عامر والكسائيُّ، وأبو جعفر وخلف: ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضمِّ الصّاد[1]، من الصُّدود، إمّا بمعنى: الإعراض، والمعنى: من أجل هذا المثل يَصُدّون عن الحقِّ، ويُعرضون عنه[2]، والمُعْرَضُ عنه محذوف؛ لظهوره من المقام، أي: يعرضون عن القرآن؛ لأنَّهم أوهَموا بجدالهم أنَّ في القرآنِ تناقضًا، وإمّا على أنَّ الضَّمَّ لغةٌ في مضارع: (صَدَّ) بمعنى: ضجَّ، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزةُ وعاصم ويعقوبُ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصّاد، وهو الصَّدُّ بمعنى الضَّجيج والصَّخب والمعنى: إذا قريشٌ قومُك يصخَبون، ويضِجّون من احتجاج ابن الزِّبعرى بالمَثَل بعيسى بن مريم عليه السلام[3]، ولا تعارض بين القراءتَيْن بل كلُّ قراءة منهما تكمل القراءة الأخرى، فإنَّهم عند ضرب المثل بعيسى عليه السلام ضجّوا، وصخبوا، ثمَّ أعرضوا عنه.

دلالةُ التَّعبير بفعل الصَّدِّ مُضارعًا:

استحضارُ المشهد يثيرُ المتلقّي إلى ترقُّب الرَّدِّ على افتراءاتِ الكُفّار

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعل الصَّدِّ مضارعًا، فقال: ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ لِما يمتازُ به المضارعُ من استحضار الحالةِ الماضيةِ كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ يبدو فيها الكفّارُ فرحين متهلِّلين بما قاله ابنُ الزِّبعرى، فيسهمُ استحضارُ هذا المشهد في التَّشنيع بهم، وتقبيح صنيعهم، كما يثير المتلقّي إلى ترقُّب ردِّ القرآن الكريم على جدالِهم، ودحضِه لافترائِهم، حتى إذا ورد؛ ثبتَ في الأذهان، واستقرَّ في العقول.

دلالةُ الواو في: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾:

الكفّارُ لا يكتفون بالصَّدِّ والإعراضِ وإنَّما يضيفون إليه القولَ بما يُغري السُّفهاءَ

الواو في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿يَصِدُّونَ﴾، وهي تدلُّ على أنَّ القومَ لم يكتفوا بالصَّدِّ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 369.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 639.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 369، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 238.

والإعراض، وإنَّما أضافوا إليه هذا الكلام قصدًا إلى إحراج النَّبيِّ ﷺ والتَّشكيكِ فيما يقولُه، و"تمهيدًا لما بَنوا عليه من الباطل المُمَوَّه بما يغترُّ به السُّفَهاءُ"[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا مُسندًا إلى ضمير الجماعة:

الجدالُ والتَّشكيكُ مِن وسائل المشركين لإثبات أنَّهم على حقٍّ

تعبيرُ القرآنِ بفعل القول الموضوع لإبراز ما يُتَصوَّر في النَّفس في جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾، فيه دلالةٌ على اعتقادِ الكُفّارِ أنَّهم على حقٍّ في عبادةِ الأصنام، وأنَّ ما جاء به النَّبيُّ هو الباطل، ومِن ثَمَّ كان القولُ والتَّشكيكُ وضرْبُ هذا المثل وغيرِه وسائلَهم لإثبات ذلك، وفي التَّعبيرِ به ماضيًا مُسندًا إلى ضمير الجماعة دلالةٌ على تحقُّق صُدوره منهم جميعًا[2]، من غير شكٍّ أو افتراءٍ؛ لأنَّهم قالوه بلسانِهم، أو وافقوا مَن قالَه، وأُعجِبوا بكلامه.

الغرضُ من الاستفهام في: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾:

فَهْمُ المشركين الخاطئ لا يغير الحقائق

قولُه: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ جملةٌ في محلِّ نصب مقول فعل القول المسند إلى ضمير الكفّار، والهمزة فيها للاستفهام التَّقريريِّ؛ للعلم بأنَّ النَّبيَّ يُفَضِّل عيسى على آلهتهم، أي: فقد لزمك أنَّك جعلتَ أهلًا للنّار مَن كنتَ تفضِّلُه، فأمرُ آلهتِنا هيِّنٌ[3]، وقيل: إنَّ الاستفهامَ مقصودٌ به الإفحامُ، وهو يتضمَّن أنَّ آلهتَهُم خيرٌ من نبيِّ اللّه عيسى عليه السلام؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ النَّصارى يعبدون آدميًّا، أمّا نحن؛ فإنَّنا نعبد الملائكة، فهُم يعتقدون أنَّ آلهتَهم خيرٌ، ثمَّ عَنَّ لهم أن يستفهِموا على سبيل التَّنَزُّل مِنَ الخبر إلى الاستفهام[4].

مرجعُ الضَّمير ﴿هُوَۚ﴾ في: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾:

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ جملة: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ هي مقولةُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 260، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 385.

قصدُ الكفّارِ تفضيلُ آلهتهم والسُّخريةُ من رسول الله

الكفّار؛ تأييدًا لابن الزِّبعرى في كلامه عن المسيح، والضَّمير ﴿هُوَ﴾ فيها يمكن أن يرجع إلى عيسى ﷺ؛ إذ قيل: إنَّ الكفّار لمّا سمعوا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 59]؛ قالوا: نحن أهدى من النَّصارى، لأنَّهم عبدوا آدميًّا، ونحن نعبد الملائكة، فنزلت، وقولُه: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾ على هذا القول: تفضيل لآلهتهم على عيسى، وقيل: إنَّ الضَّمير يرجع إلى الرَّسول ﷺ؛ إذ روي أنَّه لمّا نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 59]؛ قالوا: ما يريد محمَّدٌ بهذا إلّا أن نعبده، وأنَّه يستأهل أن يُعبَدَ وإن كان بشرًا، كما عبدت النَّصارى المسيح - وهو بشر - وغرضُهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السُّخريةُ والاستهزاءُ به[1].

سرُّ فصلِ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ عمّا قبلها:

توضيحُ السَّببِ الَّذي حَمَلَ الكفّارَ على ضرب المثل

جاءت جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤال أثاره الكلامُ السّابقُ في نفس المتلقّي عن السَّبب في ضرب الكفّارِ المثلَ بعيسى بن مريم لرسول الله ﷺ، فجاءت جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾؛ لتُبيِّن أنَّ غرضهم من ضربه هو إثارةُ الجدل واللَّجاجُ في الباطل، ومِن ثمَّ فُصِلت عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ أداة للنَّفي:

ليس للكفّار مِن وراء ضرب الأمثال أيُّ غرضٍ سوى الجدالِ والخصومة

آثر النَّظمُ الكريم النَّفي بـ ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجملة الاسميَّة والفعليَّة، كما أنَّها آكدُ في النَّفي من (ليس)، وأوسع استعمالًا منها؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجملة الاسميَّة فحسب، ولأنَّ ﴿مَا﴾ هنا تفيد بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ نفيَ وجود أيِّ غرضٍ من ضرب الكفّار

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 260.

المثلَ بعيسى بنِ مريم سوى الجدل ومحاولة المحاجَّة والإفحامِ نفيًا واسعًا لا حدودَ له.

مرجعُ الضَّمائر في: ﴿ضَرَبُوهُ﴾:

ضميرُ الرَّفع (الواو) في ﴿ضَرَبُوهُ﴾ عائد إلى ابن الزِّبعرى وقومِه الَّذين أُعجبوا بكلامِه، وقالوا بموجبه، وضمير الغائب (الهاء) المنصوب يجوز أن يعود إلى المَثَل في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾، والمعنى: ما ضربوا لك ذلك المَثَلَ إلّا جدلًا منهم، أي: محاجَّة وإفحامًا لك، وليسوا بمعتقدين هونَ أمرِ آلهتهم عندهم، ولا بطالبين المَيْز بين الحقِّ والباطل، فإنَّهم لا يعتقدون أنَّ عيسى خيرٌ من آلهتهم، ولكنَّهم أرادوا مجاراة النَّبيِّ في قوله؛ ليُفضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة، ويجوز أن يكون الضَّمير المنصوب عائدًا إلى مصدر مأخوذ من فعل: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: ما ضربوا ذلك القول، أي: ما قالوه إلّا جدلًا، فالضَّرب بمعنى الإيجاد[1].

دلالةُ اللّام في: ﴿لَكَ﴾، ومرجع الضَّمير فيه:

قصدُ الكفّار من ضـرب الأمـثـال مغالطةُ الرَّسول وصـرفُـه عـن دعوته

اللّامُ في قوله: ﴿لَكَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاص، وضميرُ الخطاب المجرور فيه يعود إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على أنَّ الحديثَ عن عيسى بن مريم ومقارنته بآلهتهم تمَّ استدعاؤُه وإثارتُه من أجل مجادلة الرَّسول ﷺ ومحاجَّته وإحراجِه، بإيهام أنَّ فيما جاء به نوعًا من التَّناقض وعدمِ الإحكام، بقصد صرف النّاس عن اتِّباعِه والإيمانِ به، كما سبق بيانه.

موقعُ ﴿جَدَلَۢاۚ﴾ الإعرابيّ ودلالته:

حـالُ الـكـفّـار هـو الـقـصـدُ إلى الجدالِ، وليس الرَّغبةَ في الإيمان

قوله: ﴿جَدَلَۢاۚ﴾ يجوز أن ينتصبَ على المفعول لأجله، والمعنى: ما ضربوه لشيء إلّا للجدل، ويجوز أن يُنصب على الحال بتأويله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.

بمجادلين، أي: ما ضربوه في حال من أحوالهم إلّا في حال أنَّهم مجادلون لا مؤمنون بذلك[1].

بلاغةُ القصر بالنَّفي والاستثناء:

في جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ قَصرَ النَّظمُ الكريمُ ضربَ الكفّار المثلَ بعيسى ﷺ على كونه جَدَلًا، قصْرَ موصوفٍ على صفةٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ طريقُه النَّفي والاستثناء، بغرض التَّأكيد الجازم والنَّفي القاطع لأن يكون للمشركين غرضٌ من ضرب هذا المثل سوى اللَّجاج والجدال بالباطل، وأنَّه ليس ثمَّة احتمالٌ لأن يريدوا من ورائه قولَ الحقِّ أو بيانَ الصَّواب؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما جاء به الرَّسولُ هو الحقُّ، وأنَّ ما يقولونه، ويجادلون فيه هو الباطل، ومِن ثَمَّ قصرَه النَّظمُ على الجَدَل بعد أن نفى عنه أيَّ صفةٍ أخرى نفيًا قاطعًا؛ "لأنَّ الكلامَ ما كان إلّا في أصنامِهم، ولأنَّ الخصوصَ في كلامهم شائعٌ، ولأنَّه عقَّبَ بما يبيّن الخصوصَ، ويزيل اللَّبسَ على تقدير تسليمه، فلم يقتدوا قطُّ بما ألزموا به أنَّه لازم"[2].

التَّأكيد الجازم والنَّفي القاطع لأن يكون للمشركين غرض من ضرب المثل سوى الجدل

سرُّ فصلِ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ عمّا قبلها:

جاءت جملة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لكمال الاتِّصال، الَّذي تنزل فيه الجملةُ الثّانيةُ من الأولى منزلةَ التّابع من متبوعه، ومِن ثَمَّ تُفصل عنها، كما يُفصل التّابعُ عن المتبوع، فقولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يعدُّ تقويةً وتأكيدًا "لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل، لا لطلب الحقِّ، ويُعدُّ كذلك إضرابًا عن مزاعمهم وعن مجاراتهم في خصومتهم"[3].

تأكيدُ أنَّ الكفّار لا يضربون الأمثالَ إلّا جدلًا وخُصومةً

معنى ﴿بَلْ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ حرفُ إضرابٍ عبَّر به النَّظمُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 456.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 92.

لينتقل إلى بيان وصفِ الكفار الثّابت الدّائم الَّذي لا ينفكّون عنه في كلِّ أحوالهم، حتّى صار كالجبلَّة لهم، وهو أنَّهم "قومٌ يحبّون الخصامَ، ويظهرون من الحجج ما لا يعتقدونه؛ تمويهًا على عامَّتهم"[1].

الانتقالُ إلى وصفِ الكفّار الثّابتِ الَّذي لا يتغيَّر

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير ﴿هُمْ﴾:

عبَّر النَّظم عن الكفّار بالضَّمير في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولِما يفيده البيانُ بالضَّمير هنا من استحضار المُسند إليه وتعيينه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: بل قومُك الَّذين ضربوا هذا المثل والَّذين ضجّوا بالصِّياح والضَّحك عند ضربه قومٌ خصمون.

الكفّارُ الَّذين ضَرَبوا المثلَ والَّذين ضجّوا بالصِّياحِ والضَّحِكِ قومٌ خصمون

دلالةُ تكرار التَّعبير بـ: ﴿قَوْمٌ﴾ منكَّرة:

كان من الممكن أن يُقال: (بل هم خصمون)؛ اكتفاءً بالضَّمير العائد إلى لفظ ﴿قَوْمُكَ﴾ السّابق ذكرُه في جملة: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، لكنَّ البيانَ أعاد التَّعبيرَ به قائلًا: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾؛ للتَّأكيد على ما منحهم اللّهُ من القوَّة الَّتي تجعلهم قادرين على القيام بما يحاولونه[2]، لكنَّهم لا يستعملونها إلّا في القيام للباطل والخصومة مع الحقِّ، وتنكير اللَّفظة لتحقيرهم أو لتعظيم خصومتهم للنَّبيِّ ﷺ ولدعوته.

الكفّارُ لا يوظِّفون قدرتَهم إلّا في القيام للباطل والخصومة مع الحقِّ

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿خَصِمُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿خَصِمُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾، عبَّر به النَّظمُ الكريمُ بصيغة المُبالغة؛ ليدلَّ على أنَّهم مبالغون في الخصومة، شديدو التَّمسُّك باللَّجاج وجدال الرَّسول مع وجود الحقِّ معه؛ لإظهار أنَّه ليس على حقٍّ[3]، وأوثر التَّعبير به اسمًا لما يمتاز به من إفادة الثُّبوت

توجيهُ الرَّسول إلى الإعراضِ عن الكافرين وعدمِ الاكتراث بأقوالهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 640.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 456.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 640، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 456، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.

والدَّوام الدّالِّ على أنَّ هؤلاء القوم صاروا كالمجبولين على اللَّجاج والخصومة من كثرة ما يقومون بها، وفيه توجيهٌ للرَّسول بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بأقوالهم، والمعنى: ذرهم - أيُّها الرَّسول الكريم - في باطلهم يعمهون، فإنَّهم قومٌ مجبولون على الخصومة في الحقِّ، واللَّجاج في الباطل[1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الصَّدُّ والإعراضُ:

الصَّدُّ هو: الإعراض والمَنْع عَن قصد شيء مخصوص، قالَ تَعالَى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنَعونَ النّاس عَن قَصده[2]، والإعراض: هو الانحراف بالوجه عن الشَّيء، واستقباله بالعَرْض[3]، كناية عن عدم الاهتمام به، والتَّعبير عن موقف المشركين من ضرب المثل بعيسى بلفظ ﴿يَصِدُّونَ﴾ الدّالِّ على الإعراض والمنع هو الأنسب؛ لأنَّهم لم يكتفوا بالإعراض، وإنَّما قاموا بالضَّحك والضَّجيج؛ إعجابًا بفعل ابن الزِّبعرى، ولصرفِ النّاس عن اتِّباع الرَّسول والإيمان به، وهو ما لا يقوم بتصويره فعل الإعراض؛ لو جاء التَّعبير به.

الصَّدُّ إعراضٌ ومنعٌ، أمّا الإعراضُ؛ فهو ميلٌ إلى الجانب وتلقٍّ بالعرض

الخصومة والمجادَلة:

الخصومة تعني: المُنازَعَة، والذَّكَرُ والأُنثَى فيهِ سَواءٌ، وأصل المُخاصَمَة: أن يتعلَّق كلُّ واحد بخصم الآخر، أي: جانبه، وأن يجذب كلُّ واحد خصم الجوالق من جانب - كما سبق بيانه - أمّا الجدال؛ فهو أن تفتل الخصم عن مذهبه بحجَّة أو شُبْهة أو شغب، ويفتلك عن مذهبك بمثل ذلك، إلّا أنَّه يمكن أن يُستعمل في المناظرة

الخصومةُ تعني المنازعة، والجدال قد يكون لإثبات الحقِّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 92.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).

لإثبات الحقِّ وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32]، وفي هذا دليل على أنَّ الجدال لإقامة الحجَّة حسنٌ، وأنَّه تقوم به الحجَّة، ولولا ذلك لم يجادل نوح عليه السلام[1]، ولمّا كان هدف مشركي مكَّة وقصدُهم إحراجَ رسول الله وصرفَ النّاس عن الإيمان به، والعملَ على إحراجِه وإيسافِه؛ كان التَّعبيرُ بقوله: ﴿خَصِمُونَ﴾ أدلَّ على حالهم، وأنسبَ لواقعهم، من لفظ الجدل، الَّذي يمكن أن يوهم أنَّهم على شيء من الحقِّ، ينافحون عنه.

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 167.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"